﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء: 16 - 17]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

كلُّ شيء في كون الله تعالى خُلِق بحكمة ولحكمة يعلمها الله تعالى

لما أنكر هؤلاء النُّبوَّة وجعلوا معجزات الأنبياء عدمًا وعبثًا ولعبًا أبان تعالى أنه ما خلق السَّماء والأرض وما بينهما إلّا بالعدل فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾؛ أيْ: وما أوجدنا السَّماوات والأرضيْنَ إلّا بالحقِّ؛ أيْ: بالعدل والقسط، لا للهو واللَّعب، فإنا خلقناها لفائدة دينيَّة هي أن تكون دليلًا على معرفة الخالق لها ولمنافع الدنيا وغيرها.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَٰعِبِينَ﴾: (لعب) أصْلانِ يَتفرَّعُ مِنْهُما كَلِماتٌ: إحْداهُما اللَّعِبُ[1]، وهو الهزل، ضدّ الجدّ، واللعب فعلُ ما لا فائدة فيه، وهو أيضًا: ما فعل من غير قصدٍ صحيحٍ، وهو: كل عملٍ لا يجري على فاعله نفعًا[2]، ومعناها في الآية: العمل أو القول الذي لا فائدة تُتحصَّل منه، ولا نفعٌ يُرتجى منه، ولا مَفسَدة تُدفع فيه ولا ضرَّ، وإنَّما يُقصد به إرضاء النَّفس حين تميل إلى العبث، فهو الباطل الذي ليس فيه حكمة[3].

2) ﴿لَهْوًا﴾: (لهو) أصْلانِ صَحيحانِ: أحدُهُما يَدُلُّ على شُغْلٍ عَنْ شَيْءٍ بشَيْءٍ؛ والآخَرُ على نَبْذِ شَيْءٍ مِنَ اليَدِ، ولهيتُ عن الشَّيْءِ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لعب).
(2) السمين، عمدة الحُفّاظ: (لعب).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 32.

إذا تَركْتَهُ لِغَيْرِهِ[1]، فاللّهو: الشُّغل عن مهمّات الأمور[2]، وصرف الهمّ عن النَّفس بالقبيح[3]، وبما لا يُحسن أنْ يُصرف به[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الحكيمُ لا يخلق شيئًا سُدًى وهَمَلًا، حاشاه من ذلك

بعد أنْ أنكرَ هؤلاء الظالمون دعوة الرَّسل للإيمان بالله تعالى، ولم ينتفعوا بالمعجزات التي أرسل بها رُسُلَه؛ بيَّن تعالى أنَّه ما خلق شيئًا إلّا بحكمةٍ ولحكمة، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝١٦ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾، والمعنى:"إنَّنا لم نخلق السماوات والأرض وما بينهما عبثًا، وإنَّما خلقنا هذه المخلوقات بحكمتنا وقدرتنا، وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ استئنافٌ مُقرّرٌ لمضمون ما قبله، من أنَّ خلق السَّموات والأرض وما بينهما لم يكن عبثًا؛ وإنَّما لحِكَمٍ بالغة"[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ الوصل بواو العطف:

دعـوةٌ للتَّفكير والاسـتـدلال وإعمال العقل

الواو حرف عطف أو استئنافيّة، والجملة إشارةٌ إجماليةٌ مسوقةٌ لعرض البدائع والعجائب التي انطوى عليها خلقُ السّماوات والأرض، وبيان أن تكوينَ العالم وإبداعَ بني آدمَ مؤسَّسٌ على قواعد الحِكَمِ البالغةِ المُستتبِعة للغايات الجليلةِ وما فيها للعظة، ولتكون مطارح اعتبار وحافزًا للتَّفكير والاستدلال؛ فإنّ ما حُكي من العذاب الهائلِ والعقاب النازلِ بأهل القرى من مقتَضيات تلك الحِكَم ومتفرِّعاتها؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لهو).
(2) السمين، عمدة الحُفّاظ: (لهو).
(3) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 398.
(4) القونوي، حاشية البيضاوي: 17/ 396.
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 194.

لأنّ للمخاطَبين المُقتدرين بآثارهم ذَنوبًا مثلَ ذَنوبهم[1]، ويُلمحُ فيها الدلالة على الوعيد.

دلالة النَّفي بـ ﴿وَمَا﴾:

﴿وَمَا﴾ هنا نافية بمعنى: لم نخلق السماء والأرض وما بينهما من مخلوقات للَّعب واللّهو، و(ما) النّافية لها صدر الكلام، وهي هنا داخلة على الفعل الماضي ﴿خَلَقْنَا﴾ بمعنى لم، وجعل سيبويه – رحمه الله تعالى – فيها معنى التَّأكيد لأنَّها تجري مجرى (قد) في النَّفي، فكما أنَّ قد فيها معنى التَّأكيد فكذلك ما جعل جوابًا لها[2].

كـلُّ شيء في خَلْق الله تعالى مخلوقٌ لمُهِمَّةٍ على حسب ما اقتضت حكمته تعالى

وفضلًا عن معنى التَّوكيد فإنّ في دخول (ما) على الماضي دلالةً على انتفاء الحدث وانقضائه مرَّةً واحدةً من غير تجدُّدٍ وتكرارٍ؛ أيْ: نفي الحدث بصورته المُنقضية التّامّة، والمعنى هنا: ما خلقنا السَّماء والأرض بصورتيْهما التّامَّة الكاملة المُنصرِمة المُنقضية لاعبين.

خلقُ السماءِ والأرضِ تـمَّ وانقضى مرّةً واحدةً

دلالة التَّعبير بالخلق دون غيره:

إيثار لفظ (الخلق) بما يحمله من دلالات: التقدير المستقيم، وإبداع الشّيء من غير أصل ولا احتذاء، ولا مثال سابق، الخاصّ بالله تعالى وحده[3]، مقصود ههنا لكون خلق السماوات والأرض هو من الإبداع والإيجاد المُقدَّر على غير مثال سابق، وكان الغرض والمقصود الأسمى هو كون الخلق للنَّظر والاعتبار وآية باهرة على قدرته سبحانه لذا ورد التعبير بفعل الخلق؛ "ولِذلك كَثُرَ تَعْقيبُ ذِكْرِ نِظامِ خَلْقِ السَّماواتِ والأَرْضِ بذِكْرِ الجَزاءِ الآجِلِ والبَعْثِ وإهْلاكِ بَعْضِ الأُمَمِ الظّالِمَةِ، أوْ تَعْقيبُ ذِكْرِ البَعْثِ والجَزاءِ الآجِلِ والعاجِلِ بذِكْرِ نِظامِ خَلْقِ السَّماواتِ والأَرْضِ"[4].

إيجادٌ مُحكمٌ لا حذو له ولا نظير دالٌّ على قدرة الخالق ﷻ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 59، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 293.
(2) الزركشي، البرهان: 4/ 405 - 406.
(3) الراغب، المُفردات: (خلق).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 29.

سرُّ إضافة فعل الخلق إلى ضمير العظمة:

صنعُ الله تعالى في غاية الإبداع والإمتاع والنَّفع

ورد قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا﴾ مُسنَدًا إلى ضمير العظمة الذي يُراد به الله ﷻ؛ لأنَّ خلق السماوات والأرض لمّا كان أمرًا لا يُوجد مثله للإحكام وبديع الصُّنع، وكونهما مخلوقين لا على مثال سابق أو حذو يُنسج على منواله؛ إذ لا يقدر على هذا إلّا الله تعالى، ومن هنا نسب فعل الخلق إليه تعظيمًا وتشريفًا لما أُضيف إليه فعل الخلق، فالإضافة هنا إضافة تشريف وتعظيم، إلى ما في الإضافة هنا؛ لأنَّه أخصر طريق لإحضاره في ذهن السّامع.

سرُّ التعريف في ﴿ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

عَظَمَة خلق السماء وسَعة الأرض مدعاةٌ لتعظيم الله تعالى وإجلاله

ورد لفظا ﴿ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ هنا مُعرَّفيْن بـ(أل) العهديَّة، ولمّا لم يتقدَّم ذِكْرٌ صريحٌ أو كنائيٌّ لهما عُرِّفا بالعهد العلميِّ أو الحضوريِّ، فأعلم السّامع بالمقصود من خلقهما، وأُحضر له في الذِّهن حضورًا تامًّا؛ فجاء تعريفهما بـ(أل) العهديَّة العلميَّة أو الحضوريَّة لغرض إحضار هذا الخَلق العظيم في ذهن السّامع وإعلامه به.

المُراد بـ ﴿وَمَا﴾ في قوله: ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾:

تعدد وسائل الاستدلال بين خلق السَّماء والأرض وما بينهما من مخلوقات

(ما) هنا اسم موصول بمعنى (الذي)، واسم الموصول من الأسماء المُبهَمَة يحتاج دومًا إلى الصِّلة التي تُزيل إبهامه، وورد هنا لكونه الوسيلة الوحيدة للمعرفة، ومُرادٌ به - أيضًا - تعظيم أمر الخلق وتفخيمه مع زيادة تقرير الغرض المسوق له الكلام، وهو بيان قدرة الله تعالى في إيجاد الأمور العظام؛ ومنها خلق السماوات والأرض وما بينهما على غير مثال سابق.

لا حدود لما بين السَّماء والأرض من المخلوقات، ولا إحصاء ولا عدّ

وفي دلالة (ما) على العموم شمول كلِّ مخلوق بين السماء والأرض من غير تحديد، أو تقييد؛ لكونها تقع لذوات ما لا يُعقل، ولصفات العقلاء؛ فهي أوسع استعمالًا، وهذه السّعة تناسب لا محدودية المخلوق بينهما.

معنى (بين) وسِرُّ التَّنصيص عليها:

توجيه العقول للتَّدبُّر فيما بين السَّماء والأرض من مخلوقات

(بَيْن) لفظٌ موضوع للخلالة بين الشَّيئَيْن ووسطهما، ولا يُستعمل (بين) إلّا فيما كان له مسافة، نحو: بين البلديْن، أو له عدد ما اثنان فصاعدًا[1]، وما بين السَّماء والأرض مسافة وخلالة بين الشَّيئَيْن يصلح معها ذِكْر (بين)، وسرُّ التَّنصيص على ذِكْر البينيَّة هنا أيضًا أنَّه لمّا كان خلق السماوات والأرض من الأمور العظام استُطرد للحديث عمّا يشملانه من المخلوقات؛ فورد التعبير بقوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ تتميمًا وتكميلًا لذلك، "ولأجْلِ هذا اطَّرد أوْ كادَ أنْ يَطَّرِدَ ذِكْرُ لَفْظِ (وما بَيْنَهُما) بَعْدَ ذِكْرِ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الفرقان: 59] في مِثْلِ هذا المَقامِ؛ لِأنَّ تَخْصيصَ (ما بَيْنَهُما) بالذِّكْرِ يَدُلُّ على الِاهْتِمامِ بِهِ؛ لِأنَّ أشرفه هو نَوْعُ الإنْسانِ المَقْصودِ بالعِبْرَةِ والِاسْتِدْلالِ وهو مَناطُ التَّكْليفِ"[2].

التعبير بلفظ (اللَّعب) ودلالته:

إبـــداع الـلـه تعالى في خلقه مـؤسَّـسٌ على قواعد الحكمة البالغة

"اللعب عمل للذة لا يراعى فيه داعي الحكمة كعمل الصبي؛ لأنَّه لا يعرف الحكيم ولا الحكمة وإنما يعمل للذة"[3]، فهو الفعل الذي لا يقصد به مقصد صحيح"[4]، "لبيان كمالِ تنزّهه تعالى عن الخَلْق الخالي عن الحِكمة بتصويره بصورة ما لا يرتاب أحدٌ في استحالة صدورِه عنه سبحانه؛ بل إنَّما خلقناهما وما بينهما لتكون مبدأً لوجود الإنسان وسببًا لمعاشه، ودليلاً يقودُه إلى تحصيل معرفتِنا التي هي الغايةُ القصوى بواسطةِ طاعتِنا وعبادتنا"[5]؛ فاللعب باطل لعدم وجود حكمة مقتضاة في عمله وهو يضادُّ الحكمة.

(1) الراغب، المفردات: (بين).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 30.
(3) العسكري، الفروق اللُّغويَّة ص: 268.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 17/ 18.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 59.

بلاغة الاحتراس في لفظ ﴿لَٰعِبِينَ﴾:

ذِكْـــرُ خـلـقِ السّماء والأرض يـقـتـضي عـلّـة خلقهما

ومعنى ﴿لَٰعِبِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾؛ أيْ: "غير مريدين بذلك تحقيق الحقائق وإبطال الأباطيل؛ بل خلقنا لكم ذلك آية عظيمة كافية في الوصول إلينا ليظهر العدل في جزاء كل بما يستحقّ، مشحونة بما يقوت الأجسام، ويُهيّج النفوس ويشرح الصدور، ويريح الأرواح ويبعث إلى الاعتبار، كلَّ مَن له استبصار للدلالة على حكمتنا ووجوب وحدانيتنا فاتخذتم أنتم ما زاد على الحاجة لهوًا صادًّا عن الخير، داعيًا إلى الضَّيْر"[1]، فنفي اللَّعب هنا احتراسٌ ورد حفاظًا على المعنى من كلِّ ما يُفسده أو يُغيِّره، فلمّا ذكر خلق السماء والأرض وما بينهما؛ أبان أنَّ خلقهما لم يكن لعبًا أو عبثًا، أو هو تكميل لأداء المُراد من ذِكْر هذا الخَلْق.

موقع جملة ﴿لَٰعِبِينَ﴾ من الإعراب:

وجـود السّمـاء والأرض تكميلٌ لأداء المُـراد من ذِكْر هذا الخلق

جملة ﴿لَٰعِبِينَ﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ حالٌ من الفعل في قوله: ﴿خَلَقْنَا﴾، وهي هنا حالٌ لازمةٌ لصاحبها لا تنفك عنه لعدم استقامة المعنى بدونها[2]؛ فليست منتقلةً لا تتحوَّل من حالٍ إلى حالٍ.

دلالة التّعبير باسم الفاعل ﴿لَٰعِبِينَ﴾:

خلقُ السَّماوات والأرض آيـةٌ عـظيمةٌ كافيةٌ في الـوصـول إلى الخالق ﷻ

في قوله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ جاء التّعبير بلفظ اللَّعب هنا اسم فاعل دلالة على الثُّبوت والاستمرار؛ فجاء نفي اللَّعب عنه ﷻ هنا بما يدلُّ على ثبوت ذلك باسم الفاعل.

سرُّ الفصل في قوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ﴾:

في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ فُصلت جملة ﴿لَوْ أَرَدْنَآ﴾ عن سابقتها لكمال الاتِّصال

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 395.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 32.

لكونها مُفسِّرة أو معلِّلة لجملة ﴿وَمَا خَلَقْنَا﴾؛ فجاءت "مُقَرِّرَة لِمَعْنَى جُملَةِ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ تَقْريرًا بالاسْتِدْلالِ على مَضْمونِ الجُمْلَةِ، وتعليلًا لِنَفْيِ أنْ يَكونَ خَلْقُ السَّماواتِ والأرْضِ لَعِبًا؛ أيْ: عَبثًا بأنَّ اللَّعِبَ لَيْسَ مِنْ شَأْنِنا، أوْ على الفَرْضِ والتَّنازُلِ: لَوْ أرَدْنا اللَّهو لَكانَ ما يَلْهو به حاصِلًا في أشْرَفِ الأماكِنِ من السَّماواتِ؛ فإنَّها أشدُّ اخْتِصاصًا باللَّه تَعالى إذْ جَعل سُكّانَها عِبادًا لَهُ مُخْلِصينَ"[1].

اللعب ليس من شأن الخالق ﷻ

دلالة ﴿لَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ﴾:

﴿لَوْ﴾ شرطيَّة امتناعيَّة تدخل على الماضي وتُفيد عدم تحقُّق جملتيْها؛ والمعنى: لو أردنا اتخاذ لهوٍ لاتَّخذناه، ولكن ذلك لا يكون، وهذا تعريضٌ ببيان قدرته على فعل ما يُراد فعله إلّا أنَّه يستحيل أن يفعل ذلك لعظمته ﷻ، ولهذا قيل: هي حرفٌ لما كان سيقع لوقوع غيره، أو هي لتعليق ما امتنع بامتناع غيره، وكونها شرطيَّة يقتضي امتناع ما يليها واستلزامه لتاليه.

يفعل الله تعالى ما يريد فعله بما تُوجبه حكمته

إيثار التعبير بالإرادة مُسندة ﴿أَرَدْنَآ﴾:

تُستعمل الإرادةُ تارة في المبدأ، وهو: نزوع النّفس إلى الشيء، وتارة في المنتهى، وهو الحكم فيه بأنَّه ينبغي أن يفعل أو لا يفعل، فإذا استعمل في الله؛ فإنه يُراد به المنتهى دون المبدأ، فإنَّه يتعالى عن معنى النُّزوع، فمتى قيل: أرادَ الله كذا؛ فمعناه: حكم فيه أنه كذا وليس بكذا، وتذكر الإرادَةُ ويُراد بها معنى الأمر، وكذلك معنى القصد[2]؛ فالتعبير بالإرادة دليلٌ قويٌّ في الرَّدِّ على مَن ظنُّوا أن خلقه السماوات والأرض من قبيل الهزل؛ فجاءت الإضافة للتَّشريف لما أضيف إليه ضمير العظمة وهو فعل الإرادة.

لفت الأنظار إلى وجوب الاعتبار بخلق السماوات والأرض

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 33.
(2) الراغب، المفردات: (رود).

سرُّ مجيء ﴿أَن﴾ في قوله: ﴿أَن نَّتَّخِذَ﴾:

لا يفعل ربنا شيئًا إلّا لحكمةٍ ولا يترك إلّا لحكمة

وردت ﴿أَن﴾ في جملة ﴿أَن نَّتَّخِذَ﴾ لتأكيد الإرادة، ووروودها رابطٌ لجملتها بما قبلها، وهو بيان اتِّخاذ اللّهو المُترتِّب على فعل الإرادة، ووجودها أضفى على النَّظم رونقًا لا يتحقَّق بعدم وجودها، فلو أُسقطت ﴿أَن﴾ صار الكلام مُفكَّكًا لا روح فيه ولا ميزة، والجملة فيها مزيدُ بيانٍ بُعْدِ خلق السماوات والأرض عن كونه لهوًا أو لعبًا حاشاه تعالى أن يصدر منه ذلك البتَّة.

دلالةُ اختيارِ فعلِ الاتِّخاذ في معنى الجمع:

عظمة الفعل من عظمة فاعله

"الأَخْذُ: حَوْز الشيء وتحصيله، وذلك تارةً بالتَّناول، وتارةً بالقهر، ويُعدّى إلى مفعولَيْن ويجري مجرى الجعل"[1]، وورود فعل الأخذ مجموعًا تعظيمًا وتشريفًا له ﷻ مع مزيد بيان قدرته على فعل ما يريد وما يذره، فيعبَّر بالجمع عن المفرد مُرادًا به التَّعظيم والتَّشريف.

فائدة صيغة الافتعال:

قدرة الله تعالى على الاتّخاذ مُتحقّقةٌ لا ريب

الاتِّخاذ من أفعال التحويل والتَّصيير، وصيغته تدلُّ على قوّة الفعل، والمبالغة في تحصيله، فضلًا عن قيد القصد والتَّعمُّد فيه ممّا يُقرِّر معنى الإمكان على إرادة الاتّخاذ ويُحقِّق دلالة قدرته ﷻ وبلحاظ دلالة التَّعظيم المُتحقِّق من جمع الفعل ﴿نَّتَّخِذَ﴾.

فائدة المصدر المُنسبك ﴿أَن نَّتَّخِذَ﴾:

إطلاق زمن الاتِّخاذ، وعدم تحديد كيفيَّته أدلّ على مُطلَق القدرة

يُفيد المصدر المؤوَّل الدلالة على الزمن: الماضي، أو الحال، أو الاستقبال، بحسب الفعل بخلاف المصدر الصريح، ويدلُّ - ولا سيّما مع ﴿أَن﴾ - على مجرّد معنى الحدث دون احتمال زائد عليه، ففيها - يعني ﴿أَن﴾ - تحصينٌ من الإشكال، وتخليصٌ له من شوائب الإجمال، ومن هاتَيْن الوظيفتَيْن المعنويّتَيْن للمصدر المُؤوَّل نستطيع

(1) الراغب، المفردات: (أخذ).

توجيه قصديَّة استعماله في قوله تعالى: ﴿أَن نَّتَّخِذَ﴾ دون المصدر الصَّريح (اتّخاذ) باستمرار زمن الاتِّخاذ دون تقييده بزمنٍ مُحدَّد، وذلك أدعى لمُطلَق القدرة، وأدلُّ على تمام الإمكان.

أمّا دلالة المصدر المُؤول على الحدث دون معنًى زائد عليه؛ ففيه ملمحٌ بيانيٌّ بديعٌ تحريره: أنّ المبتغى الإشارة إلى إمكان اتّخاذ السماء والأرض وما بينهما لهوًا، من غير النَّظر إلى كيفيّة هذا الاتّخاذ فهو أمر يخضع لكمال قدرته تعالى التي لا يُعجزها شيءٌ.

إيثار لفظ اللّهو مُنكَّرًا:

عـدم تحديد اللّهو أدلُّ على كمال قدرته تعالى

مجيءُ لفظ اللّهو على صيغة التَّنكير، ووقوعه في سياق النَّفي في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد: 36] أدلّ على العموم، والشُّيوع في آحاد الشَّيء، والإبهام؛ لأن التنكير يستلزم خفاء المعرفة، والمعنى: أيُّ لهوٍ كانَ قلّةً أو كثرةً أو كيفيّة، وإنْ دلّت على التّمام؛ أيّ: لهوًا تامًّا مبالغًا فيه، وذلك كلّه أدلُّ على كمال القدرة، وتعدد دلالات اللّهو يناسب تنكيره فهو "يعمّ كل ما يلهي عن الغايات والمطالب، وهو يُطلق على الأسباب التي تلهي الإنسان عن الغايات العليا، كالزَّخارف والطَّنافس... وغير ذلك ممّا يعني به أهل الدنيا والسلاطين الذين في لهوهم يعبثون ويلعبون"[1].

بلاغة الترتيب في ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾:

الغفلة أصلُ كل عبث، وزيغٌ عن الحقّ

قُدّم اللعب على اللّهو ههنا وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [مُحمَّد: 36] تنبيهًا على أنَّ الاشتغال باللَّعب الذي معناه الاستهزاء والعبث مُعلّلٌ باللّهو الذي معناه الذهول والغفلة؛ فالإقدام على اللَّعب علّته اللّهو والذُّهولُ عن الحقّ[2].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4842.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 120.

بيان الحقيقة في وضع المُظهَر موضعَ المُضمَر:

معنى اللّهو مُرادٌ على حقيقته لا مجازه

مجيء قوله تعالى: ﴿لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا﴾ عقيب قوله: ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ من باب وضع المُظهَر موضع المُضمَر من غير لفظه السابق؛ لأنَّ اللّهو ما يُتلهى به ويُلعب، وليس في الكلام السابق رائحةٌ من معنى الولد والمرأة، فلا يُحمل إلّا على ظاهره، ومن المعلوم أن حمل اللفظ على المجاز والعدول عن الحقيقة من غير صارفٍ وداعٍ قوي غير جائز، لا سيما إذا انضمَّ معه قرينة إرادة الحقيقة، هو مقتضى المقام[1]، فوضع المضمر موضع المظهر، والمضمر لا يكون إلّا بعد الظّاهر لفظًا أو مرتبة، أو لفظًا ومرتبة، ولمّا كان اللّهو قد ذكر فأغنى الضمير عن إعادته، والسّر في ذلك هو تمكين ما بعد الضمير في نفس السامع لتشوّفه إليه، ودعوى أن مرجع الضمير دائم الحضور في الذّهن ولذا عُبِّر به دون الاسم الظاهر.

معنى اللّام الدّاخلة على فعل الاتِّخاذ:

في قوله تعالى: ﴿لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا﴾ اللام واقعة في جواب ﴿لَوۡ﴾ الامتناعيَّة الشَّرطيَّة، وتسُمَّى اللّام غير العاملة وهي المسبوقة في جواب ﴿لَوۡ﴾ فتُفيد تأخرَّه لأمر الاتِّخاذ.

دلالة ضمير التّعظيم:

التَّعظيم سبيل بيان القدرة والجلال

في قوله تعالى: ﴿لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ ورد فعل الاتِّخاذ مُسنَدًا أو مُضافًا إلى ضمير العظمة ﴿لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ﴾؛ إشارة إلى تعظيم المُتكلِّم ﷻ بيانًا لقدرته وإرادته على فعل الأشياء، فلو أراد سبحانه الاتِّخاذ لفعل؛ لكن حاشاه أن يقع ذلك منه، ومرجع الضمير في الفعل وهو المفعول الأول العائد على اللّهو المذكور في قوله تعالى: ﴿لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا﴾.

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 10/ 307.

سرُّ تكرار الفعل (اتَّخذ):

خطاب لأصحاب العقول الصغيرة على طريق الفرض والتقدير المحال

ورد فعلُ الاتِّخاذ مكرّرًا في قوله ﷻ: ﴿لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾؛ وهو إمّا من قبيل المشاكلة اللَّفظيَّة لوقوعه في صحبة فعل الاتِّخاذ الأول، أو هو من قبيل المجاز المرسل لعلاقة السّببيَّة؛ لكون الشيء المنقول عنه وهو الاتِّخاذ سببًا ومؤثِّرًا في غيره مُعبِّرًا به من قبيل ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ﴾ [البقرة: 194]، والتّعبير بفعل الأخذ مُكرَّرًا من ردِّ العَجُز على الصَّدر، فضلًا عن أنَّ بينهما جناسَ اشتقاق قوّى المعنى وأظهره؛ فلمّا قال أوَّلًا ﴿أَن نَّتَّخِذَ﴾ أعاد علينا اللفظ مرَّةً أخرى مع استحالته علينا؛ لأنّا لا نفعل إلّا لحكمة ولا نترك إلّا لحكمة، وهذا صنيعنا.

معنى ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن لَّدُنَّآ﴾:

هل هناك مَنْ يملك منعَه سبحانه من فعل ما يُريد؟

يُفيد حرف الجرِّ في قوله تعالى: ﴿مِن لَّدُنَّآ﴾ ابتداء الغاية لكون الاتِّخاذ مبدوءًا منه ﷻ؛ أيْ: (من جهتنا دون أن يمنعنا أحدٌ).

المُراد بالظَّرفيَّة المُسندة ﴿لَّدُنَّآ﴾:

كلُّ ما يتنافى مع حكمته ﷻ ومع ذاته الكريمة محالٌ أن يحدث

و﴿لَّدُنَّآ﴾ بمعنى (عندنا) ولكنها أخص من (عند)؛ لأنها تدل على الابتداء لنهاية؛ أيْ: إنَّ اللَّعب من لدنّا مبتدئ، وذلك لا يسوغ ولا يجوز[1]، و"الظَّرْفيةُ المُفادَةُ مِنْ لَدُنْ ظَرْفيةٌ مَجازيةٌ، وإضافَةُ لَدُنْ إلى ضَميرِ الجَلالَةِ دَلالَةٌ على الرِّفْعَةِ والتَّفْضيلِ... أيْ: لَوْ أردْنا أنْ نتَّخذ لهوًا لما كانَ اتِّخاذُهُ في عالَمِ شَهادَتِكُم، وهذا اسْتِدْلالٌ باللُّزوم العُرْفي؛ لِأنَّ شَأْنَ مَنْ يَتَّخِذُ شَيْئًا لِلتَّفكُّه به أنْ يَسْتَأْثِرَ به ولا يُبيحَهُ لِغَيْرِهِ"[2]؛ فالآية هنا من قبيل تعليق المُحال على المُحال، وذاك أنَّ كلا الأمرين يتنافى مع حكمته ﷻ ومع ذاته الكريمة.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4842.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 33.

موقع جملة ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾:

يجوز في جملة ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أن تكون شرطية وجواب الشرط محذوف دلّت عليه جملة ﴿لَوْ﴾ الشّرطية التي قبلها ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾، ويجوز أن تكون ﴿إِن﴾ نافية، والجملة مستأنفة لتقرير الامتناع المُستفاد من ﴿لَوْ﴾ ومؤكّدة للنفي الثابت بقوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾؛ والتقدير: (ما كنا فاعلين ذلك)؛ لأنَّه لا يليق بالذات الكريمة ولا يُتصور أن يكون منها، وهو الرأي الأوْجَه؛ لأنّ في الأوّل تكلّفًا في التقدير، وعدم اتّساق مع النّصّ الأوَّل[1]، قال البقاعيُّ: "ولمّا كان هذا ممّا ينبغي أن تُنزَّه الحضرة القُدُّوسيَّة عنه وعن مجرد ذِكْره ولو على سبيل الفرض؛ أشار إلى ذلك بأداة شرط أخرى فقال: ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾؛ أيْ: له، ولكنَّه لا يليق بجنابنا فلم نفعله ولا نكون فاعلين له"[2].

مُحال أن يقع شيء في كونه تعالى دون أن تقتضيه حكمته سبحانه

دلالة التعبير بفعل الكينونة ماضيًا:

ورد لفظ الكينونة هنا ماضيًا لتحقيق وقوعه وحصوله كما وردت (كان) هنا مؤكِّدة فعله ﷻ إذا أراد أمرًا من الأمور فلا يستحيل عليه سبحانه فعله، كما أفاد الفعل بيان قدرته ﷻ على إرادة الأشياء وعظيم تصرُّفه في ملكه حسبما شاءت إرادته واقتضت حكمته، وهو – عزَّت حكمته – لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السّماء.

عظيمٌ تصرُّفه تعالى في مُلْكِه حسبما شاءت إرادته واقتضت حكمته

إيثار التعبير باسم الفاعل ﴿فَٰعِلِينَ﴾:

اسم الفاعل دالٌّ في أصل استعماله على الثبوت والاستمرار وأنَّ فعله ﷻ لا يتغيَّر ولا يتبدَّل، ومجيء التعبير به هنا أقوى وأبلغ من الفعل دلالة على أنَّ ثبوت فعله واستمراره راسخ دائمٌ لا ينقطع، فإذا أُريد التَّعبير عن الثُّبوت والاستمرار جيء باسم الفاعل وهكذا.

فعله ﷻ راسخٌ لا يتغيَّر ولا يتبدَّل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 33، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4842.
(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 499.

تقدير متعلّق اسم الفاعل:

حذف متعلِّق اسم الفاعل ﴿فَٰعِلِينَ﴾ هنا؛ إذ القصد منه إلفات النَّظر إلى الحدث لا إلى مَن وقع منه أو عليه الفعل، والمُراد: كنّا فاعلين اتِّخاذ هذا اللّهو؛ ولكنه لا يليق بجنابنا فلم نفعله، ولا نكون فاعلين له.

فعل ما لا يَليق بـجـلالـه ﷻ مـحـالٌ عـليه سبحانه

توجيه المتشابه اللَّفظي:

بين قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص: 27]، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الدُّخان: 38]، أوجه تشابه واختلاف؛ توصيفها: أنّ آية سورة الأنبياء: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ﴾ اتَّفق صدرها مع صدر آية سورة (ص)، واختلف العَجُز، واتَّفقت مع عَجُز سورة الدُّخان، وورود صدر آية سور الدُّخان مجموعًا فيه السَّماوات لتعدُّدها.

الاسـتـدلالُ بـإتـقـانِ نِـظـامِ خَلْقِ السَّماواتِ والأرْضِ على خَلْقِ المَخلوقات

وردت آية سورة الأنبياء بعد حديث القرآن عن إهلاك بعض القرى الظّالمة، وذكرت السُّورة عنهم أنَّهم حين أدركوا حلول العذاب بهم واستئصالهم؛ اعترفوا بظلمهم وما ارتكبوه من جرائر كانت سببًا في تدميرهم وإذهابهم بالكليَّة؛ ذكَّرهم الله ﷻ ببيان خلق السماء والأرض لمهمّات عظيمة للعِظَة والاعتبار، وأنَّ خلقهم لم يكن عبثًا أو ضربًا من اللّهو.

أمّا آية سورة (ص)؛ فوردت في معرض الحديث عن التَّفضُّل على نبي الله داود ﷺ بخلافته في الأرض وطلب الحُكم منه بين النّاس بالعدل والحقِّ، ذكر القرآن بعدها الحديث عن خلق السماء والأرض، فلمّا كانت الخلافة على أمور الناس وأحوالهم؛ ناسبها الحديث عن أحوال السَّماء وما فيها والأرض وما عليها إلّا أن الذِّكر

الحكيم هنا قرن هذا الخلق بكونه خَلقًا لا يعتريه الباطل ولا يحوم حوله كما يعتقد الكفرة المبطلون الذين لا يعنيهم هذا الأمر العظيم؛ وعليه استطرد الحديث عن الجزاء الذي ينتظرهم، والمآل الذي يصيرون إليه؛ فورد الحديث مُطوَّلًا.

وقد وردت آية سورة الدُّخان مشابِهةً لآية سورة الأنبياء؛ إلّا أنَّ لفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الدخان: 38] ورد فيها مجموعًا لتعدُّد ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الدخان: 38]، فليست سماءً واحدةً، وجاءت الآية هنا بعد ذِكر الحديث عن جبّار الأرض وطاغيتها فرعون، وعن إهلاكه ونجاة موسى عليه السلام ومَن معه، واختيار الله تعالى لهذه الجماعة المؤمنة، واعتراض الكفرة على أمر البعث والنشور مُكذِّبين ذلك كله، ومُطالِبين بعودة آبائهم الأوَّلين ظنًّا منهم عجز الخالق ﷻ عن ذلك؛ فجاء الرَّدُّ من الله ﷻ بتذكيرهم بمَن سبق من الأمم وإهلاك الله لهم، فعاد بالحديث عن أكبر شيءٍ في الوجود منهم وهو خلق السماوات والأرض، وأنَّه ما خلقهما للعب؛ وإنَّما خلقهما بالحقِّ مع عدم علمهم بذلك؛ إمّا جهلًا منهم؛ وإمّا كِبْرًا وعِنادًا.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

اللَّعب واللّهو:

المَرحُ شدَّة الفَرح والمَسَرَّة والنشاط حتّى يجاوزَ قَدْرَه[1]، والتَّسلّي والسِّلوان هو ما يُسلّي الإنسانَ من أحزانه وكمده، والسَّلوة: رخاء العَيْش مع غفلة[2].

اللعب الباطل الذي ليس فيه حكمة، واللّهو الشُّغل عن مُهمّات الأمور

أمّا اللَّعب واللّهو؛ فبحسب ما سبق في شرح المفردات من معانٍ للفظ اللعب بأنّه: الهزل، ضدّ الجدّ، وطلب المزح والفرح بما لا يحسن أن يُطلب به، وفعلُ ما لا فائدة فيه، ومن غير قصدٍ صحيحٍ،

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصِّحاح: (مرح).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (سلا)، والسمين، عمدة الحُفّاظ: (سلو).

وللفظ اللّهو بأنّه: الشُّغل عن مُهمّات الأمور، وصرف الهمِّ عن النَّفس بالقبيح، وبما لا يحسن أنْ يُصرف به، وهو: ما يشغل الإنسان عمّا يعنيه ويهمه، فإنّ اختيار كلّ لفظ في مكانها يناسب تمامًا سياق وروده فيها؛ فمعنى اللَّعب في الآية: العمل أو القول الذي لا فائدة تُتحصّل منه، ولا نفع يُرتجى منه، ولا مفسدة تُدفع فيه ولا ضرّ، وإنَّما يُقصد به إرضاء النَّفس حين تميل إلى العبث، فهو الباطل الذي ليس فيه حكمة.

وأمّا اللّهو في الآية التّالية؛ فهو الاشتغال عن عظائم الأمور، ممّا يهمّ المرء، ويعنيه، وهذه المعاني غير متضمَّنةٍ في لفظي: المرح، والتسلّي الدّالّيْن على معنى الفرح وإذهاب الحزن.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والثلاثون،
سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 33 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-75-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 33 : المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-75-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1130605 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»